نابليون وسخرية الأقدار

للقاص الروسى البارع إسكندر كوبرن أقصوصة عنوانها « إغراء » ، مضمونها أن مهندساً فى ريعان الشباب قوى البنية ، رضى الأخلاق ، كريم الطباع ، كان عائداً فى قطار الشرق الأقصى قاصداً مدينة بتروغراد بعد أن قضى فى الشرق خمس سنوات ، بعيداً عن أسرته ، جمع فى غضونها ثروة طائلة ، وكان يبدو موفور السعادة طافح البشر ، وكان يستطيل الوقت ويكاد يستحث سرعة القطار ، ولا ينى يتحدث عن شدة شوقه إلى رؤية أفراد أسرته ، وحرصه على لقائهم ، وكان فى كل محطة يرسل برقية إلى أسرته ويتلقى منها برقية ، ولما طوى القطار تلك المسافة الشاسعة وبلغ العاصمة الزاهرة اشتد شوقه ، وعظم تأثره ، واصفار وجهه ، واضطربت أعصابه ، وفقد اتزانه ، فسقط من جراء ذلك تحت عجلات القطار . والفكرة التى حاول توضيحها مؤلف الأقصوصة هى أن الرجل لشدة حرصه ، وفرط حماسته لرؤية أسرته بعد الغياب الطويل والسفر البعيد ، أغرى الأقدار بمعاكسته ، وحرضها على أن تتحداه ، وقد بدأ كوبرن هذه القصة العجيبة المحزنة بهذه المحاورة التى تلائمها فى الغرابة والخفاء

(لقد اعتدت أن تردد فى مناسبات كثيرة قولك « إنها المصادفة » ولكن الأمر الجوهرى الذى أود أن أسترعى التفاتك إليه هو أن المسألة أخطر مما تظن وأكثر تعقيداً .

واسمح لى أن أقول إنى قد وقفت على الستين ، وهى تلك المرحلة من مراحل العمر التى يرى الإنسان فيها أمامه بعد الأهواء المضلة ، والصراع الطويل ، ثلاث طرق ، وهى طريق الطمع وطريق الطموح وطريق الفلسفة ، ويمكن أن أقول إنهما طريقان ، لأن الطموح ضرب من الطمع .

ولست أستطيع أن أسمى نفسى فيلسوفاً فإن ذلك عبء ثقيل لا أقوى على حمله ، وثوب فضفاض لا يلائمنى ، وفضلاً عن ذلك فإن فى وسعك أن تجبهنى بقولك « أنثر على كنانتك وأرنى إجازتك » ، ولكنى برغم ذلك قد عشت حياة منوعة حافلة ، و بلوت النعماء والبأساء ، وتمرست بأهوال الفقر والمرض والحرب ، وراعنى فقد أقرب الناس إلى وآثرهم عندى ، وعانيت مرارة الأسر والسجن ، ولواعج الحب ومضض العار ، و برد اليقين وألم الجحود .

وسواء أصدقتنى أم لم تصدقنى فإنى قد عرفت الناس . ولا تحسبن هذا شيئاً غير عجيب ، إنه شىء جد عجيب ياسيدى ! ولكى تعرف أى إنسان ، وتخلص إلى سريرته ، يلزم أن تكون قادراً على نسيان شخصك ، وأن تغفل عن محاسنك ومناقبك وجلالة خطرك ، وقليل من الناس من يستطيعون ذلك .

والآن وأنا فى أيامى المدبرة ، أنا الفقير الأثيم أحاول أن أفكر فى الحياة ، وأنا — كما ترانى — شيخ عالى السن ، وحيد من الخلان ، ناء عن الأهل . وأنت تعرف طول ليالى العجائز ، ولكن ذاكرتى لا تزال تحتفظ بآلاف الذكريات . ومما يروقنى أن أستعيد صور الماضى وسوالف الحوادث .

ولقد طاف بنا الحديث على مسألة « المصادفة » و « القضاء » وأنا مستعد أن أسلم معك بأن المصادفة حمقاء رعناء ، متقلبة الأطوار عمياء ، تخبط خبط العشواء . ولكن هناك قانوناً صامتاً يسيطر على الحياة ، ويقضى بأن كل شىء يولد ويتجدد ، ثم ينمو ويزدهر ، ويوفى على الكمال ويبلغ الذروة ، ثم يتراجع وينكص وتتقلص ظلاله ، وتصوح زهرته ، ثم يصيبه العفاء والدثور ثم يعيد ثانية سيرته ، ويبعث من جديد ، وهكذا دواليك مثل التعرج اللولبى .

وستحاول أن تقول إن مثل هذا القانون لو كان موجوداً لكانت الناس قد استكشفته من زمن طويل ، ولاستطاع البشر قراءة المستقبل ، ومطالعة الغيوب ، ولكن الأمر ليس كذلك ، لأننا نحن الأناس مثل النساجين الذين يجلسون متقاربين إزاء سداة طويلة الامتداد تمر أمامهم الألوان المختلفة من أصفر فاقع ، أو أحمر قان ، أو أزرق داكن ، ولكنهم لا يستطيعون تمييز الأنموذج لقربه منهم ، والحياة لا تتكشف أسرارها ، وتنجلى غوامضها ، إلا للذين استطاعوا أن يقفوا بعيداً عنها مثل عباقرة العلماء ، وصفوة الأنبياء والشعراء ، والمتعصبين لأفكارهم . وإنى على أتم

استعداد لقبول أحكام تلك القوانين المسيطرة على كل شيء ، ولكنى ألمح قوة أخرى لا أعرف كيف أعبر عنها ، ولا كيف أسميها ، ولكنها لو تجسمت فى شخص لظهر الشيطان إلى جانبه ساخراً هين الشأن جديراً بالمرثية له .

تصور قوة مسيطرة على الكون تكاد تعادل قوة الله ، و إلى جانبها قوة أخرى عاتية لاهية ، تتجاهل الخير والشر ، وهى مع ذلك قاسية لا ترحم ، ولكنها حادة الذكاء عادلة ، وربما استغلق عليك فهم حديثى فلأضرب لك مثلا حياة نابليون ، فهى حياة تشبه الخرافة ، وشخصية عظيمة مفرطة فى العظمة ، وقوة متمادية ، لا ينضب معينها ، ولا ينقطع مدها ، ولكن انظر إلى خاتمة ذلك كله ! جزيرة صخرية صغيرة ، وألم مبرح فى المثانة ، وتذمر كتذمر العجائز . ولا شك عندى فى أن هذه الخاتمة التعسة كانت من سخرية تلك القوة الغريبة التى أشرت إليها ، وقد فطن القدماء لهذه القوة المجهولة ، وكانوا يخشونها ، ويحذرون جانبها ، وكانوا يسمون بسماتها الساخرة " غيرة الأقدار ") .

فى ضوء هذه الأفكار التى يختلط فيها الوضوح بالغموض ، ويلتقى فيها الظل والضوء أريد أن أنظر إلى سمة ظاهرة فى حياة نابليون ، وهى تصوره للقضاء فى أواخر أيامه وهو منفى فى جزيرة القديسة هيلانة .

كان نابليون فى صباه ومطالع حياته ، نابليون القائد ونابليون القنصل ، لا يرى فى كلمة « القضاء » معنى غامضاً ، ولا لغزاً غريباً ، لأنه كان عقلى

النزعة ، مادى الفلسفة ، وكان فوق ذلك كله واقعياً لا يغره بريق الأحلام ، ولا يجرى وراء الخيال . وكان يحلل كل موقف تحليلا دقيقاً ، ويزنه وزناً فاحصاً ، وكان يثق بنفسه ، ويعتمد على إرادته القوية ، وعزمه الصارم ، ويعتقد أن الموقف الفاصل فى حياة الإنسان هو معرفته مدى مواهبه ، وطبيعة ملكاته ، واستثمار تلك المعرفة جهد الطاقة ، ومتى اطمأن إلى ذلك فسرعان ما تتبدد الشكوك ، ويزول التردد ، وينطلق فى طريقه قدماً وهو عليم بغايته ، عارف بوسائله ، يحدوه الإيمان بنفســه ، والثقة بقدرته .

وكان يعتقد أنه يستطيع أن يقدر وجوه المعركة القادمة ، وشتى محتملاتها فى دقة حسابية قل أن يتطرق إليها الخطأ ، وبذلك لا يترك مجالا للمصادفة ولا نصيباً للحظ ، وأصحاب المدارك المتوسطة أو العقول العادية هم الذين يعتقدون بالمصادفة ، ويرونها لغزاً غريباً ، وسراً غامضاً . أما هو ذو البصر الحديد ، والرأى الصائب ، واللمحات الخاطفة فلا غرابة أمامه ولا غموض ولا أسرار !

والحظ والقدر فى رأى نابليون القائد المنتصر الموفق حقائق ميسور تحديدها ، وعلم النجاح أساسه أن تزن فى دقة وانتباه محتملات النجاح ومحتملات الفشل فى أية مسألة من المسائل ، ولكن كلما عظمت عبقرية الإنسان ، وسمت ملكاته كان الجزء المتروك للحظ فى حياته جد صغير وقد كان نابليون مغامراً جريئاً ، وهو لا يخفى ذلك بل يصارحنا به ، ولكنه

كان يلعب لعبة علمية فى عناية تامة ، و براعة تستدعى الإعجاب ، وكان يزيده جرأة وثقة بالنفس إلمامه بأصول تلك اللعبة ، وتغلغله إلى دقائقها ، وكان يقول عن نفسه : « مقدرتى العظيمة قائمة على أنى أعرف أن الخط المستقيم أقرب من الخط المنحنى » وكانت تأهباته مقرونة على الدوام بالروية والتفكير ، وتقليب الأمور على جميع وجوهها ، وفحص نواحيها فحصاً تاماً ، ووزنها وزناً دقيقاً ، والإحاطة بكل تفاصيلها وصغائرها ، ولاعتقاده أن حظه فى يده ، وطوع أمره ، كانت ثقته فى نتيجة اللعبة لا تتزعزع ، وكان يزيد هذه الثقة قوة وتمكيناً غلبة عقله على جسمه ، واستطاعته أن يحتمل العمل المرهق فى جلد وصبر دون أن يدركه إعياء أو تخذله صحته .

ولكن مر السنين ، وطول التجربة ، وتوالى الحوادث ، جعلته ينحرف عن تفسير المصادفة هذا التفسير الهين ، وعن تعليل القدر تعليلا واضحاً بسيطاً سطحياً ، وصار القدر فى نظره رويداً رويداً شيئاً غير ملموس ، وبدأ يأخذ صورة القوى الغامضة الخفية التى يرى نفسه إزاءها مسلوب القوة ، منهوب الإرادة ، وصار يدرك أنه مدفوع ومجبر ومسوق .

وأخذت نفسه تمتلىء بهذه القدرية اليائسة العميقة ، وتباعدت فى تفكيره فكرة القدر عن فكرة النجاح ، وأخذ يعتقد أن الحظ بدأ يخونه ، وأخذت ثقته بنفسه تضعف وصار يعزو ما يلحقه من الفشل إلى الظروف والحوادث .

وكان كلما مرت السنون ، وتكاثرت الأحداث ازداد شعوره بعثار

جده ، وأفول نجمه ، حتى جاءت معركة واترلو وقضت على نفوذه ، وكانت من المعارك التى لعب فيها الحظ دوراً ملحوظاً ، وكان يقول قبلها بقليل « هاتف داخلى ينبئنى أن النتيجة سوف لا تكون سارة ، وإنى أعزو فشلى إلى أفول نجمة حظى » وقد أذعن بعد ذلك للإنجليز ، وألقى إليهم مقادته ، وكان فى وسعه أن يسلك مسلكا آخر ، ولكنه آثر ذلك نزولا على حكم الحظ ، واستسلاما للأقدار ، ولاعتقاده أن العقبات التى كان فى مستهل حياته يزيلها من طريقه فى سهولة قد أصبحت فى نظره عقبات كأداء لا سبيل إلى التغلب عليها ، وعادت إلى قاموسه كلمة « مستحيل» بعد طول إهمالها وحذفها !

كان يشعر فى ذلك الوقت بأنه مقيد فى أصفاد الظروف والأحوال ، أسير فى سجن الزمن لا يستطيع الخلاص من أسره ، ولا يقوى على صدع قيوده وتفكيك أغلاله ، وكان حينئذ يرى أنه إذا أراد القضاء أمراً فلا مرد لمشيئته ولا معقب لحكمه ، والجهاد ضد الأقدار عبث لأن ما كتب قد كتب ولا بد من نفاذه ، وليس فى طاقة جهودنا وإرادتنا أن نغير حرفاً واحداً من المكتوب فى سفر الأقدار !

وكان يرى فى وجوده بتلك الجزيرة الصخرية المشؤومة ، وفى الآلام التى يكابدها دلائل واضحة على أن القضاء لا يغالب ، وكيف لا ؟ ألم يعد القضاء له هذه الخاتمة لأن حياته بدأت لامعة متألقة ؟

ولكنه مع ذلك كان عندما يتناول تاريخ غيره من عظماء الرجال

وأبطال التاريخ يعلل فشلهم بما طرأ من التغير على حالتهم النفسية و بواعثهم الدخيلة ، ويأبى أن ينسب فشلهم إلى الظروف الخارجية ! فلماذا فشل قيصر وهانيبال والإسكندر ؟ وهل اللوم على الظروف والمصادفة ، أو كان حظهم هو سبب ذلك ؟ يجيب نابليون على ذلك بقوله « نجاح الرجال العظماء لا يتوقف على الظروف والمصادفة ، وإنما هو نتيجة التفكير والعبقرية» ورجال القدر فى رأيه قد سيطروا على الحظ لأنهم عظماء ، ولأنهم كانوا يحسبون حساب كل خطوة ، ويسيرون على بينة من أمرهم ، وقد أخذ الفشل يلاحقهم لما خانوا نفوسهم ، وفقدت عبقريتهم قوتها ، وضعف نظرهم فى عواقب الأمور ، واختلت موازينهم ، وكانت هزيمتهم الخارجية فى الواقع نتيجة محتومة لانهيار صرح شخصيتهم الداخلية .

كان نابليون يفكر هذا التفكير فى مصير غيره من الأبطال ، ويعلل فشلهم هذا التعليل ، ولكن كان يحجم عن تطبيق ذلك على سيرته ، ويأبى أن يواجه به نفسه لأنه لا يريد أن يعترف بهزيمته الداخلية ، وخيانته لنفسه ، وكأنما كانت كبرياؤه الباقية لا تطاوعه على الإفصاح عن ذلك !

وقد كان فى صدر حياته يرى أن المصادفة مهيمنة على شؤون العالم ، وعلى الإنسان أن يخضعها ، ويتخذها وسيلة لتحقيق أغراضه ، وكان عالمه واضحاً ميسور الفهم لا يحيط به خفاء ، ولا تكتنفه أسرار ، وكان عقله المادى النزعة يحاول أن يفسر الدنيا فى ضوء الحقائق العارية المكشوفة ويخضع مظاهرها للعقل .

ولكن على توالى الأيام أخذ يشعر بوجود قوة غامضة مسيطرة على حياة الناس لا يستطيع أن يدرك كنهها ، ولا أن يسبر غورها لأنها من وراء طاقة العقل . وأخذ يظهر له أن جميع الحوادث مترابطة متصلة الحلقات ، وأنها خاضعة ليد خفية تحركها . ولذا قال فى حديث له مع دوقة ويمار « صدقينى أن هناك عناية ترشدنا ، وما أنا إلا آلة فى يدها ! »

وهكذا أخذ يقرن فكرة « القدر » إلى فكرة « العناية » ، وأخذ ينمو فى نفسه شعور صوفى بهذه العناية التى بدأ يدرك وجودها ، ويستشف أثرها ، ولذا نشأت فى نفسه إلى جانب إدراكه المادى للحياة عناية بشؤون الدين ، واحترام للكتب المقدسة ، وكان يقول « إننا مادة ، وليس بعد الموت سوى الموت » ولكن كان فى نفس الوقت يدمن قراءة الإنجيل والكتاب المقدس .

وهذا الشعور بالقدرية الذى استولى عليه فى سنواته الأخيرة طبع أقواله وأعماله بطابع خاص ، ففى سنة ١٨١٣ كان يردد قوله « إن الحظ يعمل ضدى » وصار يعتقد أن سقوطه ضربة لازم ، وكان يرفض أن يعترف بالعوامل المختلفة التى أدت إلى فشله وسقوطه .

وقد قنع نابليون فى النهاية بحظه ، وارتضى المنفى فى الجزيرة النائية ، وكان يقول « لقد تركت فى الدنيا دوياً كافياً ، وقد علت سنى وأصبحت أريد الراحة » وكان يؤمل — وقد أضاع كل شىء — أن يجد فى تلك

الجزيرة هدوء النفس وراحة الضمير ، وكان يرى ذلك ميسوراً قريب المنال بعد التبعات الخطيرة التى اضطلع بحملها ، والمطامع المتعبة التى استهوته ، ولقد طوى مستقبله السياسى فهو الآن يستطيع أن يستمتع بلذة القراءة وجمال الأحلام !

ولكن سخرية القدر لا تريد له ذلك ، فهى ترسل إليه فى تلك الجزيرة رجلا عنيداً وطاغية صغير النفس وهو السير هدسن لو . وكان يطيب لهذا الرجل أن يظهر سلطته على نابليون فكان يقول « أنا آمر القائد بونابرت ! إنه أسيرى »

فيرد عليه نابليون من عزلته قائلا فى حدة وغضب « كلا ، لست أسير أحد ، إنما أنا ضيف الأمة الإنجليزية ! »

فيجيبه الحاكم « هذا هراء ، وسأرغمه على طاعتى أو أضعه فى القيود والسلاسل » ويؤيده مساعده قائلا « نعم هو طريد وسجين ، والحاكم محق فى معاملته بهذا الأسلوب ! »

وكان هدسن لو يفتنُّ فى تضييق الحصار على نابليون ، وتشديد الرقابة عليه ، وكان يجتهد فى أن يجعل نابلون شاعراً بأثر الرقابة ووقعها حتى قال أحد أصفياء نابليون « إنهم يقتلون بوخز الإبر رجلا عجزت عن هزيمته جيوش أوربا »

وفى آخر مدة التقى فيها هو والحاكم نشب بينهما جدل عنيف قال فيه نابليون لهدسن لو « بعد سنوات قليلة سيجر عليكم النسيان أذياله ، أنت

واللورد كاسلرى واللورد باثرست ، وإن جسمى فى قبضة يدك ولكن روحى لا تزال حرة وجريئة كما كانت وأنا سيد أوربا ، وستكون أوربا هى الحكم العدل فى المعاملة التى عوملت بها ، وسيرتد الخجل منها إلى الشعب الإنجليزى ، وإن عداوة اللورد باثرست هى التى أرسلتك هنا ، وأنت لست قائداً وإنما أنت كاتب أركان حرب ! »

وحز ذلك فى نفس هدسن لو ، ونال منه فرد على نابليون قائلاً « أنت تضحكنى يا سيدى »

نابليون : « ماذا ؟ أنا أضحكك ! »

هدسن لو : « نعم يا سيدى ! وأسفى شديد لخشونة أخلاقك وأتمنى لك يوماً سعيداً »

وبعد انصرافه التفت نابليون إلى مونتهولن وقال « لقد قلت أكثر مما يجب ! وسأمتنع عن لقاء الحاكم مرة ثانية لأنه يغضبنى ويخرجنى عن طورى ! »

وحافظ على وعده ، وظل لا يراه لمدة خمس سنوات ، ولم ير هدسن لو نابليون بعد ذلك إلا وهو ميت مسجى على فراشه .

وهكذا ظلت الحرب التى ظن أنه قد نبذها وباعدها بقبوله المنفى تلاحقه وتأبى أن تتركه ، وظلت الحرب ناشبة إلى يوم مماته ، ولكنها كانت حرباً ضد الطغيان الذى حاول أن يفرضه عليه هدسن لو ، كانت حرب صغائر وسفاسف يثيرها مستبد ضئيل الشأن على رجل فقد كل شىء ، وعزيز قوم ذل ، وصار نابليون يعتقد أن هذه المعركة هى الحلقة الأخيرة من

المعاك التى دامت طوال حياته ضد الإنجليز ، وكان هدسن لو فى نظره يمثل الإنجليز .

قال لليدى مالكولم « لقـد لبست تاج فرنسا الإمبراطورى وتاج إيطاليا الحديدى و إنجلترا الآن تقدم لى تاجاً أروع وأعظم وهو « إكليل الشوك » فالإهانة والتحقير والاستبداد تزيد فى شهرتى ، و إنى أعزو إلى إنجلترا تألق مجدى » وكان يعزى نفسه بقوله « غيرى من الناس يخفضهم فشلهم ، أما أنا فقد رفعنى الفشل إلى أسمى المراتب » ولم يستطع أن يواجه حقيقة أن حبسه كان ثمناً تقاضته الأقدار لطموحه المتناهى ومطامعه البعيدة وللحيوات البشرية التى حطمها وأسال دماءها فى حروبه العديدة ، ولكنه كان فى منفاه وقد أثقلته المصائب وأدته الأحزان أشجع منه فى أيام مجده والدنيا عليه مقبلة .

كان عظيما وجلداً صبوراً ، كان رجلا ، وقد صبر صبراً جميلا على سخرية الأقدار !